

جاهلية

بقلم نبيل بومنصف

(جريدة النهار ١٢/٨/٢٠٠٠)

اذا كان ثمة فضيلة لهذه المسماة انتخابات، فهي في اتاحتها فرصة نادرة لعموم "المشاهدين - الناخبين" لمعاينة انهيارات السياسيين، سواء كانوا في العهد والحكومة والسلطة او خارجها، وسواء كانت هذه الانهيارات طوعية او مطلوبة بقصد الايهام ان موسما انتخابيا يجري فعلا.

هذه الانهيارات تحصل وسط تصاعد جاهلية عزّ مثلها ولم تشهدها من قبل حتى انتخابات ١٩٩٢ و ١٩٩٦ اذ ظلت حينها بقايا ورق تين تستر بعض العري، فاذا بالانتخابات الراهنة تكشف انهيار آخر معالم التستر وتكاد تجرف معها كل حصون الممانعة.

ولعل ما شهده الاسبوع الحالي من ضروب الاستباحة السياسية التي بلغت من التدني والوضاعة حدا فاضحا انهارت معه أبسط قواعد اللياقة، يثبت ان "عصفورية" المجون الانتخابي لا تهدف الى العودة بمجلس شعب جديد موال؟ لسوريا فحسب، وهو تحصيل حاصل وأقل المتوقع وأكثر البديهيات ترقبا، بل يتجاوز ذلك الى ما هو أخطر أي اظهار "القبائل" اللبنانية في جاهلية فطرية تتيح تأبيد الوصاية فيما يتراقص في الموسم الماجن المرشحون - المهرجون والناخبون - القطعان ساهين عن كل شيء.

وما خلا قلة نادرة محترمة (في زمن عزّ فيه الاحترام) من المرشحين الذين لا يتجاوز عددهم عدد اصابع اليد والذين تطاردتهم لعنة انعدام الوصاية السورية واندفاع السلطة المحلية الى تحطيمهم، تكاد جموع المرشحين المتدافعة من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب ان تحول لبنان ركاما معدوم العافية، بلا تلويح ولا حضارة ولا ثقافة لفرط احتلالهم اليومي منصات الاعلام وغسل الادمغة والكذب وتزوير الوقائع والسجلات السياسية والشخصية.

ويتكلم هؤلاء المرشحون بوضوح على رهان مدمر طالما توسلته السلطة ومن خلفها، وهو ان اللبنانيين بلا ذاكرة، وان الذاكرة الجماعية ممسوحة وممحاءة. فيقوم من بين المرشحين يوميا، وهم المعروفون جميعا بأنهم بذار سلطوي خالص، من يصطنع هجمات كلامية ظاهرها حملات على الاشباح والاجهزة والمخابرات والسلطة والعهد، وباطنها خدمة هؤلاء جميعا حتى الرمق الأخير سواء كان المرشح ناعما بارادة التغليب او ذاهبا الى التقاعد محفوظ الحصص منتفخا بالرعايات المتنوعة. وبذلك يشهد اللبنانيون يوميا ولادات خادعة لأبطال زائفين تراهم يشربون حليب البطولة بين ليلة وضحاها، فيضج الجنوب بمعارك "الباكوات" الجدد والقدامى، وتغرق كسروان بسجلات التقليد والتغيير، وينهمر في بيروت

رصاص التركتين الحديثة والآفة، ويهتز الشمال لخروج رموز العائلية والاقطاع. كل ذلك ومعظم المرشحين، نوابا كانوا او وزراء او سياسيين، ما كانوا في هذه المواقع لولا الاجهزة نفسها والاشباح أنفسهم وكذلك الوصاة. فلما دارت الدورة وأن زمان حلول غيرهم مكانهم، بدفتر الشروط نفسه، عمدوا الى تقديم التحية الاخيرة في لعبة التناوب للايهام بأن في لبنان انتخابات.

بالمنطق نفسه تتصاعد موجة مدبرة تبشر البلاد بعودة منقذين كانوا حتى الامس سبب التركة الثقيلة التي أعاققت العهد عن الايفاء بالاحلام الوردية. وهكذا تصبح معركة بيروت والشمال معركة استشارات مسبقة لا أحد يدري من يطلقها، وسواء كان المطلق سلطويا - محليا او سلطويا - سوريا او ظلا متوثبا للعودة الى السلطة. وبين صبح وعشية ترتفع أصوات تتوسل رفيق الحريري عودة منقذة وتلقي تبعات الفشل الراهن المتراكم على سليم الحص وحده. ثم تكمل المعركة مسارها لحذف عمر كرامي لسبب لا يمكن أحدا ان يظن انه يرتبط بالحس السيادي المفرط لديه وهو ابن النظام نفسه الذي يأكل اليوم بعض ابنائه ليحل مكانهم من يجب ان يخدموا تناسل لعبة الوصاية الى ما لا نهاية.

وكما حلّ بمصباح الاحدب قد يحل بعمر وسواه وسواه. فلا ضير ان يذهب غدا ٣٠ نائبا ليعود مكانهم ٣٠ آخرون من ابناء النظام البررة مشفوعين بروح التجدد لضخ الوصاية بزخم جديد.

يتكلمون كلهم على محو ذاكرة اللبنانيين، فاذا بألوف الضحايا في الجبل يمحون في لحظة ويحل في بكفيا ونام اين منه عرس التحرير في الجنوب ولا أحد يدري على أي أساس طويت صفحة بلقاء زعيمين جمعتهما لحظة تقاطع مصالح انتخابية فيما السيادة مع قبور الضحايا.

عهد يتآكل، وسلطة تتآكل، وسياسيون في موسم تهريج. ولعلها الفضيلة الوحيدة لانتخابات تكشف جاهلية من شأنها ان توقظ الذاكرة خط دفاع أخيراً قبل ان يزول كل شيء.
